

## القدر في القرآن



القدر في القرآن - اختيار الإنسان - الهدایة والضلال - مشيئة الإنسان ضمن مشيئة الله - أجل الإنسان ورزقه محددان - روح الإيمان بالقدر.

من المطاعن التي وجهها أعداء الإسلام إليه أنّ الإيمان بالقدر هو من أهم أسباب ضعف المسلمين وتخلفهم عن الغربيين في العلوم والفنون والحكم، لأنّ عقيدة القدر في عرفهم تعطل المدارك والقوى وتميل بمعتقدها إلى الكسل انتظاراً لما يأتيه من الغيب.

والحقّ أنّ الرسول محمّد صلّى الله عنه عليه السلام ذكر من جملة أركانه: "وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله". والمعنى: أنّ كلاً من الخير والشر يجري في الكون بمقادير وموازين وسنن وأسباب اقتضتها حكمة الله، وإنّ الله لم يخلق شيئاً إلا بإرادته، وإنّ جميع ما في الكون موافق لما سبق في علمه.

وإذا رجعنا إلى القرآن نراه لم يذكر القدر على أنسه من أُسس الدين مثل الاعتقاد بالله والملائكة والكتب والرسُّل واليوم الآخر وإنما جاء الكلام على أنسه نظام سماوي كسائر القوانين السماوية الأخرى، ولم يتعرض القرآن لوجوب الإيمان به.

القدر في القرآن:

وإذا نظرنا إلى معنى لفظة القدر التي جاءت في القرآن في مواضع متعددة رأينا: القدر (بفتح الدال وسكونها) والمقدار والتقدير وردت بمعنى: جعل الشيء بمقاييس مخصوص أو وزن محدود أو وجه معين يجري على سنة معلومة. قال الله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدْرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ) (المؤمنون/18). أي بمقدار معين. وقال الله تعالى: (اللَّهُمَّ يَعْلَمُ مَا تَحْكُمُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغْيِيْنُ الْأَرْضَ وَمَا تَرْزُقَ دَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ

بـِهِ مَقْدَارٍ) (الرّعد/8). أي أنّ "لكلّ" شيء من مخلوقات إِنْسَنَةً ونوميس ومقادير منتظمة كسننه في حمل الإناث وعقمها وزيادة الذرية ونقصها. والإنسان جزء من الوجود وينطبق عليه النظام الذي اقتضته حكمة إِنْهٗ وقديره. قال إِنْهٗ تعالى: (مَنْ أَيْ شَيْءٌ خَلَقَهُ مَنْ نُطْفَةٌ خَلَقَهُ فَقَدْ رَهُ ۖ) (عبس/18-19). وجاء في القرآن عن الزمن: (وَاللَّهُمْ يُقْدِرُ اللَّاهِ يُلْهِ وَاللَّهُ هَارِ) (المزمل/20). وجاء في التعريم: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رَهُ تَفْدِيرًا) (الفرقان/2).

فيتبيّن لنا من هذه الشواهد كلّها أنّ عقيدة القدر في القرآن هي التي تعلم المؤمنين أنّ لهذا الكون نظاماً محكماً، وسنناً مطردة ارتبطت فيها الأسباب بالأسباب وإن ليس في خلق إِنْهٗ خلل ولا مصادفات، ومن فائدة هذا الاعتقاد أنّ أهله يكونون أجدر الناس بالبحث في نظام الكائنات وتعرف سنن إِنْهٗ في المخلوقات، وطلب الأشياء من أسبابها والجري إليها في سننها.

## اختيار الإنسان:

بعد ذلك نلقي نظرة إلى القرآن ففي مسألة اختيار الإنسان لنرى مبلغ ضعف التهمة التي يرمون بها الإسلام وهو بريء منها. ويتجلى لنا ذلك في كلام إِنْهٗ سبحانه عن المشركين حين احتجوا بأنّ أعمالهم السيئة إنما كانت بإرادته إِنْهٗ ومشيئته، فقد رد إِنْهٗ سبحانه عليهم: (سَيَقُولُ الَّذِينَ شَرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمَنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَلِكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَدَّثَنِي ذَاقُوا بِأَسَدَنَا قُلْ هَلْ عَنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُؤْخِرُوهُ لَذَنَا إِنْ تَتَبَعُونَ إِلَّا الطَّنَنُ وَإِنْ أَرْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ قُلْ فَلَمَّا أَجْعَلْنَا الْجُجَّةَ الْبَالِغَةَ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَ أَكُمْ أَجْمَعِينَ) (الأعراف/148-149).

والمعنى: سيقول المشركون لو شاء إِنْهٗ ما أشركوا، أي أزّهٗ تعالى شاء أن يشركوا، وقد رد إِنْهٗ تعالى شبهتهم بمحبتين: الأولى - إنْهٗ عاصي المشركين الساقبين لسوء فعلهم. ولو إنّ أعمالهم السيئة كانت بمشيئة إِنْهٗ لما عاقبهم عليها. وإنّ الاعتذار بالمشيئة نوع من الكذب على إِنْهٗ. والثانية - إنْهٗ تعالى لم يقل مثل هذا القول على لسان واحد من رسليه، وطالب المشركين بدليل علمي على زعمهم: (قُلْ هَلْ عَنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُؤْخِرُوهُ لَذَنَا). ثم أثبت إِنْهٗ دحض زعمهم بقوله: (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَ أَكُمْ أَجْمَعِينَ).

و واضح من هذا أزّهٗ لو شاء إِنْهٗ أن يكون الناس على طريق واحد لكان هذا الطريق هو طريق الهدایة، ولكن الناس غير مجبرين على سلوك طريق بعينه، فقد توضحت مشيئة إِنْهٗ في إرسال رسليه ليبينوا للناس الحقّ من الباطل، وترك للإنسان تفضيل أحد الطريقين على الآخر وسلوك السبيل الذي يختاره، كما جاء في قوله تعالى: (إِنَّمَا هَدَى نَبِيُّهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٌ وَإِمَّا كَفُورٌ) (الإنسان/3). و قوله تعالى: (وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلَيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلَيَكْفُرْ) (الكهف/29).

ومشيئه إِنْهٗ تتجلّ في إرسال الرُّسل لهداية الناس وتعليمهم سبيل الرشاد والتحذير من سُبل الضلال، ومشيئه إِنْهٗ تتوضح في اختياره لأحد السبيلين.

والقرآن في كثير من آياته يثبت الاختيار للإنسان وإنّه مسؤول عن أعماله، وإنّ الفساد الذي يشكو منه في نظمه الاجتماعية، وضروب الشر الشائعة في شؤونه المعيشية كلّ ذلك نتائج لمقدمات وضعها بنفسه. قال إِنْهٗ تعالى: (ظَاهِرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذْيِقَهُمْ بِعِنْدِ الْأَذْيَاءِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الروم/41).

ويقول سبحانه: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيدَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَبِعُفُوِّ عَنْ كَثِيرٍ) (الشورى/30). ويقول أيضاً: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَنْفَسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهِ وَمَا رَبَّكَ بِظَلَامٍ لِتُعَذِّبَهُمْ يَرْجِعُونَ) (فصلت/46).

والقرآن يدعو إلى الاعتماد على الذات في إحداث الانقلابات الإصلاحية التي ترفع بالجماعة إلى حياة طيبة وأمن واستقرار. قال سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد/11).

هذا ما ذكره القرآن وهو صريح على أنّ إرادة الإنسان وعمله هما مصدراً مثوابته أو عقابه، وهذا لا يتفق مع ما يقوله أعداء الإسلام من أنّه دين تواكل يمنع أهله من الترقى في حياتهم الدينية.

## الهداية والإضلال:

الهداية والإضلال هما بيد الله، لكن هذا الأمر الذي قرره الإسلام اتخذ البعض حجة على أنّ الإنسان مجبر مثل قوله تعالى مخاطباً رسوله محمداً (ص): (أَفَمَنْ حَقِيقَةُ الْعِدَادِ كَلِمَاتُ اللَّهِ أَفَأَنْزَتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ) (الزمر/19)، (إِنَّكَ لَا تَهُدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهُدِي مَنْ يَشَاءُ ) (القصص/56).

فالهداية والإضلال اللذان بيد الله علّهما القرآن بأنّهما على سابقة استحقاق للعباد، وبين أسبابهما مثل قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهُدِي الْفَوْمَ الظَّالِمِينَ) (المائدة/51). (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهُدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) (الزمر/3). (فَلَمَّا زَاغُوا أَرَاعَ اللَّهَ قُلْتُو بَهُمْ) (الصف/5). (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَبْلٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) (غافر/35). (وَمَا يُضْلِلُ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) (البقرة/26). (وَيُضْلِلُ اللَّهُ الظَّالِمِينَ) (إبراهيم/27).

ف أصحاب هذه الصفات الذميمة لا يستحقون الهداية ورحمة الله.

أما الذين يستحقون الهداية فأمثال أصحاب هذه الصفات: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهُدَ قَلْبَهُ) (النور/11). (قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضْلِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهُدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْتَابَ) (الرعد/27). (يَهُدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ أَنْبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُّلَ السَّلَامِ) (المائدة/16).

## مشيئة الإنسان ضمن مشيئة الله:

والإسلام يثبت الاختيار والكسب للناس ولكن الناس يفعلون بإرادتهم واختيارهم ما يريد الله أن يفعلوه: (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرُ لِلْعَالَمِينَ \* لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ \* وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (التكوير/29-27).

فإنه سبحانه يخبر إنّ الناس يفعلون بإرادتهم واختيارهم (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ) ولكن يفعلون ما يشاء الله: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ).

وعلى هذا المعنى وردت بعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى: (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ) (القصص/68). (فُلِلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ) (التوبية/51). (وَإِنْ يَمْسِسْكَ اللَّهُ بِهُنْرٍ فَلَا كَاشِفٌ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسِسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ الْفَاتَحُ فَوْقَ عَبَادَتِهِ) (الأنعام/17-18).

"والواقع أنّ هذه الآيات وما جرى مجريها تصور حقيقة علمية قررتها كثرة فلاسفة الغرب وعلمائهم واطلقوا عليها مذهب الجبرية، ونسبوا الجبر فيها إلى سنة الكون ومجموع الحياة فيه بدل أن ينسبوها إلى الله وعلمه وقدرته... وهذه الجبرية العلمية تذهب إلى أنّ مالنا من اختيار في الحياة إنما هو اختيار نسبي ضئيل القدر، وأنّ القول بهذا الاختيار النسبي يرجع إلى ضرورات الحياة الاجتماعية من ناحية عملية أكثر مما يرجع إلى حقيقة علمية أو فلسفية، فلو لم يتقرر مذهب الاختيار لتعذر على الجماعة أن تجد أساساً تقييم عليه تشرعها وحدودها وتنظم بذلك حياتها...".

وما جاء في القرآن من ناحية أجل الإنسان فيتبيّن لنا من ذلك قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمْوَتْ إِلَّا بِمَا دُنِيَ اللَّهُ كِتَابًا مُؤْجَلاً) (آل عمران/145). (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُ كُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ) (النساء/78). (وَمَا يُعْمَلُ مِنْ مُعْمَلٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ) (فاطر/11).

فهذه الآيات أصدق وصف لواقع هذه الحياة، فإنّ أمامنا كلّ يوم دليلاً على أنّ "الأجل قدّر" لا مفر منه. فمن الناس من يأتيه الموت فجأة ولا يعرف أحد له مرضًا، حتى إنّ طائفة من الأطباء يقولون: إنّ الإنسان يولد وفي تكوينه جريثومة انتهاء حياته.

وإذا كان أجل الإنسان مقدراً فكذلك رزقه مقدر أيضاً:

(إِنَّ اللَّهَ يَرَوُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (آل عمران/37).

هذا الذي تعرض له القرآن في مسألة القدر والاختيار والرزق والأجل، أما مَنْ يحاول "البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته وبين ما تشهد به البداية من عمل المختار، فيما وقع عليه الاختيار فهو من طلب سرّ القدر الذي نهينا عن الخوض فيه، واحتلال بما لا تکاد تصل العقول إليه".

روح الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر يسوق معتقده دائمًا إلى السعي والعمل، فيرى منفعته في السعي قائلاً: إن لم يتم بأحدهما فسيتم الآخر، ومؤلاً خيراً من أسرار القدر، لأنّ المقدر غير معلوم ولا أمارة له غير أفعاله وأعماله.

ومن حكمه السامية إنّ الله دعا الأنفس البشرية للإيمان بالقدر ليكون مخففاً لجزعها إذا نزلت بها النوايب ومثبّتاً لها عند ملاقاة المصائب وتحشم المصاعب، فإذا هاجم اليأس قلب أمرء من مطلب يطلبه، أو قامت العقبات دون رغبة يرغبها، قام الإيمان بالقدر والاعتماد على الله لنجدته، فهو يفتح له الأبواب المغلقة ويدلل له المصاعب، فيأخذ العدة من حيث أمره الله باتخاذها.

كما أنه عند التوفيق في أعماله، وما يطرأ عليه من مفاجآت سارة لا ينسى أن يزيّنها بالتواضع، ولا يفقد رشه من شدة الفرح، وإلى هذا يشير القرآن:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيدَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِهِ أَنْ زَبَدَ أَهْمَاءً إِنَّ ذَلِكَ عَلَيَّ اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْ أَعْلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) (الحديد/22-23).

فالله يخبر بأنّ ما يصيب الأرض والأنفس من مصائب مكتوبة في اللوح مثبتة في علم الله، ثم يطلب من الإنسان ألا يهلكه الحزن إذا أصابه شر لأنّ هذا مقدر له في كتاب ولم يكن هناك بدّ من أن يختاره، وإذا قدّر له خير، عليه أن يذكر أنّ هذه النعمة ثابتة في كتاب ولم يكن هناك بدّ من حصولها ولم يكن هناك بدّ من اختيارها فيجب أن لا يطفيه الفرج وأن لا تبطره النعمة.

والاعتقاد بالقدر تتبعه صفات الشجاعة والبسالة والجود والحساء فالذى يعتقد بأنّ "الأجل محدود، والرزق مكفول، والأمور بيد الله" يصرّفها كما يشاء، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقّه وإعلاء كلمة أُمّته وملته، وكيف يخشى الفقر حين ينفق من ماله في تعزيز الحقّ وفعل الخير حسب الأوامر الإلهية.

